الثنـائيات الضدّية في لغة النص الأدبي
بين التوظيف الفنّي والذوق الجمالي

أ.علي زيتونة مسعود

جـامعة الوادي

الملخّص :

الثنائيات الضديّة ظاهرة فلسفية انتقلت إلى النقد وطُبّقت على الأدب . وهي انعكاس لمظاهر الكون وتعبير عن النفس البشريّة المتقلّبة وصراعها في هذا الوجود . واللغة انعكاس لهذا الكون ، والأدب تعبير عن هذه النفس . ومنه فإنّ هذه الدراسة تسعى لتبيين أهميّة هذه الثنائيات الضديّة في تفعيل النص الأدبي وفي إضفائها حركيّةً وحيويّةً عليه، ودورها في الإقناع والتأثير، وإنتاج الدلالة . وتكشف - أيضا - عن جمالياتها في هذا النص ، و ما تقدّمه فيه من دهشة ومفاجأة ، و ما تقوم به من ربط بين المتناقِضَيْن وتفاعل بينهما وتناسب بين المعاني - رغم الضدّية - .

Résumé

Cette étude vise à démontrer l'importance de « binômes contradictoires » dans le dynamisme du texte littéraire , et sa vitalité, ainsi que leur rôle dans la persuasion et l'influence, et la production de signification ... et puis détecter l'esthétique de ces « binômes contradictoires » y compris son rôle dans la liaison entre les extrêmes contradictoires du texte et l'interaction entre eux et l'adéquation entre les significations.l'étonnement et la surprise .... ces binômes sont considérés comme un reflet des manifestations de l'univers et l'expression de la psyché humaine et la lutte volatile dans cette existence .

Ainsi la langue du texte est le reflet de l'univers, et la littérature n'est que l'expression de cette psyché ....

مدخل :

كما هو معلوم أن اللغة تعبير عن الحياة و انعكاسٌ للواقع المتناقض والمتصارع ، والأدب تعبير عن النفس البشرية المتقلّبة. وإذا تأملنا ما حولنا نجده معتمدا على أضدادٍ تُشَكّلُ ثنائيات متقابلة مبنيّ عليها الكون كلّه ومستمرّ بها ؛ ففي الطبيعة أرض و سماء ، نور وظلام ... و الطبيعة البشرية قائمة

على المفارقات والتناقضات ، فيها الصادق والكاذب ، الطيب والخبيث ... والدار داران ، دنيا وآخرة ؛ ففي الدنيا مؤمن وكافر ، حسنات ، و سيئات . وفي الآخرة سعيد وشقي ، ثواب وعقاب جنة و نار... وهكذا فالتقابل بين هذه الثنائيات الضدّية "من الأسس التي يقوم عليها الوجود ،فهو يملأ الحياة حولنا ويجعلها تستمر وتبقى ولولاه لفقدت معناها " 1 .

تعريف :

يعرّف المعجم الفلسفي " الثنائيات" بقوله : " الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقّين والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسّرة للكون ، كثنائية الأضداد وتعاقبها ..."2 . ويعرّف أبو هلال العسكري المتضادّين بقوله : " المتضادان هما اللذان ينتفي أحدهما عند وجود صاحبه إذا كان وجود هذا على الوجه الذي يوجد عليه ذلك كالسواد والبياض "3. و الضدان يتعاقبان في موضوع واحد يستحيل اجتماعهما 4 . ومنه فالثنائية الضدّية هما زوجان متعاكسان . و يكون هذان الزوجان مادّيين كالطويل والقصير ... أو معنويين كالفرح والحزن ... والثنائية الضدّية تُشكّل في الكلام شقين متعاكسين ، لا يجتمعان في شيء واحد .

و" الثنائيات الضدية ظاهرة فلسفية تمّ سحبُها على النقد الأدبي ، وأوّل من طبّقها على الأدب هم البنيويون ، ويعدّ هذا المصطلح مفردة من مفردات الثقافة الغربية " 5. رغم أنها موجودة كظاهرة في تراثنا العربي فكرة وإنتاجا .

وهي تعكس طبيعة الأشياء في هذا الوجود وتُعبّر عن حقائق الحياة، وعن خصائص كونية واجتماعية ونفسية6.والحكمة بل المصلحة في وجود هذا الضدّ . وقديما قال الجاحظ (ت 255 هـ) : "اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع ، والمكروه بالسار والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة. ولو كان الشر صرفا لهلك الخلق ، أو كان الخير محضا سقطت المحنة ، وتقطّعت أسباب الفكرة ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة "7. لأن الناس بطبيعتهم مختلفون وغير متشابهين تماما . ومظاهر الحياة كلّها هي نتيجة ذلك التجاذب بين قطبَي هذه الثنائية وتصارعهما 8 .

الثنائيات الضدّية بين القدماء والمحدثين :

حظيت ظاهرة الثنائيات الضدّية باهتمام الباحثين منذ القديم في مختلف العصور ، باعتبارها فكرة فلسفية - قبل أن تكون لغوية - متأصّلة في النفس البشرية ، و مُتّصلة أشدّ الاتصال بها ، وقبلها بنظام الكون ، لتدخل عالم النقد الأدبي واللغة . فإذا كانت هذه الثنائيات موجودةً في كوننا و حاضرةً في أنفسنا و مرتبطة بالحياة الإنسانية بشكل دائم ، فإنها لا تستثني لغتَنَا المُعَبِّرة عن هذا كلّه ، والكاشفة عمّا في أذهاننا ، فاللغة " أداة تحقيق معاني الحياة " 9 .

ففي تراثنا العربي البلاغي والنقدي ، نجد مصطلحات كثيرة تدور في فلك الضدّ ، مثل الطباق والمقابلة وغيرهما . فكلّ منهما يشكّل طرفين متضادّين في الكلام . من ذلك أنّ الطباق يُعرّف على أنه " الجمع بين المتضادين"10 مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ 11 . أما المقابلة فهي" أن يأتي المتكلّم بلفظين متوافقين فأكثر ، ثم بأضدادها على الترتيب"12 مثل قوله تعالى :﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾13. وسواء أكان هذان الطرفان ، مفردين (الطباق) أم جملتين (المقابلة) . فإنهما يصبّان في دائرة التضاد ، ومن ثمّ فهما يشكّلان ثنائية ضديّة .

والجدير بالذكر أن هناك مصطلحات أخرى ظهرت في دراسات العرب القدماء ، وتصبّ - هي أيضا - في دائرة التّضاد ، وإن لم يكن لها الانتشار الواسع كمصطلحي الطباق والمقابلة ، مثل : التكافؤ الذي ظهر لأول مرّة عند قدامة بن جعفر (ت 337هـ) ، حيث أطلقه على مصطلح الطباق14 . والتناقض ، " والذي ارتبط بالضدّ ، حتى صار مرادفا للتضاد في استعمالات البلاغيين " 15. والخلاف والتغاير .... وغيرها 16.

وقد وظّف الشعراء والكتاب منذ القديم ذلك كثيرا في إنتاجهم الأدبي . من ذلك - أيضا - قصيدة الشاعر العباسي أبي تمام (ت 238 هـ) " فتح عمورية "17 والتي يقول في مطلعها :

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ   في حَدّه الحَدّ بَيْنَ الجِدّ و اللّعِبِ
بيضُ الصّفائح لا سُودُ الصّحَائف   في مُتونِهنّ جَلاءُ الشّكّ والرِّيَبِ

ومثل هذا كثير في شعر أبي تمام ، ولعلّه " قد يكون أوّل من استخدم هذا التصوير الشعري عن وعي ، وعلى نحو من التمكّن والنّضج الواضح "18 .

ومن ذلك - أيضا - قصيدة (أضحى التنائي) للشاعر الأندلسي ابن زيدون (ت463هـ) ، والتي فيها الكثير من هذه الثنائيات 19 . يقول فيها :

أضْحَى التّنَائي بَدِيلاً مِنْ تَدَانينا   ونَاب عَنْ طِيب لقيانا تَجَافِينا
أنَّ الزّمَان الذي ما زَال يُضْحِكُنا   أنْسًا بقُرْبِهِمْ ،قَدْ عَادَ يُبْكِينا
فانْحَلّ مَا كانَ مَعْقُودًا بأنْفُسِنَا   وانْبَتَّ مَا كانَ مَوْصُولا بأيْدِنَا
وَقدْ نَكُونُ، ومَا يُخْشَى تَفَرّقُنَا   فَاليَوْمَ نحْنُ ، ومَا يُرْجَى تَلاقينا
حَالتْ لِفَقْدِكُمُ أيّامنَا ،فَغَدتْ   سُودًا ،وكانت بكم بيضا ليَاليناَ

كما اعتمدَتْ على الثنائيات الضدّية الكثيرُ من النصوص النثرية المختلفة والكثير من الأمثال والحكم العربية القديمة .

وتناولتها الدراسات القديمة ، لكنها في مجملها لم تكن بالشمولية والعمق والتفصيل ، بل كانت إشارات وأمثلة جزئية ونظرة شكلية ، لم تتعد إطار الجملة والعبارة إلى النص بكامله ، ولم تغص في بنيته وتفاعلاته الداخلية في

النص.فالطباق و المقابلة - وهما يمثّلان ثنائيات ضديّة - باعتبارهما من البديع،وهذا الأخير قصره البلاغيون - عموما - على الزخرف و التزيين ، حيث عرّفوه بقولهم :"هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام" 20 ، فجعلوه ذيلا للبلاغة بعد علمي المعاني والبيان . رغم أن عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) قد نوّه بأهمية الضدّ وأثره في المتلقّي . يقول عنه : " وهل تشكّ في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المشئم والمعرق وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين " 21.

وفي التراث الصوفي نجد الثنائيات الضديّة جليّةً ، حيث وظّفها الصوفية شعرا ونثرا ، و عاشوها واقعا ، ومارسوها تجربة ؛ فهم الذين ثاروا على النفس وتقلّباتها وعلى الشيطان ومكائده وعلى الواقع ومتناقضاته ، وتصارعوا معهم وحاولوا الوصول إلى نفس أزكى ، وروح أبهى ، وحياة أسمى ، وواقع أمثل ... فالصوفي بين حضور وغياب ، واتصال وانفصال ، وصحو وسكر ... فعايشوا هذه المتناقضات ، ومن ثم تشكلت عندهم هذه الثنائيات الضدية ، و تناولوها في مجالسهم ، واستعملوها في قاموسهم اليومي ، وفي معجمهم الأدبي و انتشرت عندهم كثيرا . من ذلك : الحضور والغيبة ، الكشف والحجاب ، الصحو والسكر ، القرب والبعد ، الشريعة والحقيقة ، الظاهر والباطن ، القبض والبسط ، الفناء والبقاء ، الجمع والفرق ، الستر والتجلي ، الهيبة والأنس ...

أما في العصر الحديث فقد تغلغلت الدراسات في بُنَاه العميقة التي أسّست للتضاد ، وخرجت بمعادلة تربط أجزاءه 22 ، فاستوعبته وفهمت حقيقة وجوده وحقيقته في التعبير ، وعرفت أن دوره جوهري ، و أنه من مقوّمات التعبير ، وأساس بناء النص ، وله جمالياته الخاصة . لذلك لا يمكن أن تكون هذه الثنائيات الضديّة حلية زائدة مقتصرة على الشكل ، مستفيدين من الفكرة الفلسفة ومن الدراسات والمناهج الغربية الحديثة ، وما توصّلت إليه البنيوية التي تنظر إلى أن العالم مجموعة من الثنائيات المتشابكة ، والمتقابلة تنعكس على شبكة العلاقات اللغوية ، و هي في ذلك منطلقة من نظرة اللسانيات إلى اللغة على أنها نظام من الاختلافات 23 . و قد نظر الشكلانيون الروس " إلى البيت الشعري على أنه بنية طباقية معقّدة وأصبحت جهودهم أحد مصادر البنيوية الفرنسية "24 ، وغيرها.

لذلك فقد تغيّرت في العصر الحديث نظرةُ الباحثين والنقاد إلى هذه العناصر المتضادّة . حيث أطلق عليها مصطفى السعدني ، المفارقة ، وقسّمها إلى

المفارقة بالطباق والمفارقة بالمقابلة والمفارقة بالعكس والتبديل . و يُقصد بها إبراز التناقض بين الطرفين25. ذلك لأنّ الضدّ يجمعها . ومن ثمّ فهي ـ حسب الباحثين ـ جزءٌ من التعبير ولا يمكن الاستغناء عنها ، وهي فنون بلاغية جديرة بالتأمّل والوقوف على أسرارها ، وليست محسنات يؤتى بها للزينة الظاهرة ، أو للدلالة على القدرة اللفظية 26. يقول طه عبد الرحمان: " أن أساليب البيان مثل المقابلة والطباق وغيرها ، ليست اصطناعا للتحسين والبديع ، وإنما أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ "27. ولعلّ تعقيد الحياة الحديثة وكثرة صراعاتها وإدراك المبدعين لها ولأبعادها ، جعلت نصيبَ الثنائيات الضديّة أكثرَ وأعمقَ في الإنتاج الأدبي .

و كان من نتائج ذلك أن الشاعر الحديث ـ مثلا ـ اعتمد في بناء قصيدته وفي شعريتها على هذه الثنائيات الضدية ، كما تصدّى لها النقد بصورة مختلفة وسار متّجها بها وجهة عملية ، متفهّما لطبيعتها وأهميتها الخاصة في لغة الأدب والشعر 28 . حتى أن من الباحثين من رأى أن التجربة الشعرية الحديثة تتمحور حول عمودين يتكاملان عضويا هما الموت والحياة ، الهزيمة والانتصار، العذاب والثورة ، الغياب والحضور ، فعبّر الشعراء عن دلالات هذه التجربة 29. و قد أطلق عليها علي عشري زايد المفارقة التصويرية. وهي ـ كما يقول ـ " تكنيك فني يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض" 30، فقامت فلسفة الصورة في الشعر على هذا النوع من التقابل والتعارض المؤدي إلى المعنى 31 . من ذلك أن دارس شعر بدر شاكر السياب يستطيع أن يعاين المشاهد المتضادة والمتعارضة فيه ، فيفيد معنى الموازنة والتأمل المفضي إلى جوهر الحياة ، وتتحوّل هذه المشاهد المتضادة في شعره إلى لوحات فنية كاملة يقابل بعضها بعضا وتضفي على المشهد مزيدا من الحساسية و العمق الشعري32 . ومثل هذا كثير في الشعر العربي الحديث 33 ، بل يوجد أيضا في الرواية الحديثة34 وغيرها . فهناك " مساحة غير قليلة من خيوط الصراع الفكري والنفسي في الأعمال الأدبية الحديثة في فنون الشعر والقصة والمسرحية تقوم على تقابل المواقف والأفكار والخطط، أو التضاد بين الداخل والخارج " 35.

ولعلّ تجارب الصوفية مع هذه الثنائيات كان لها الدور البارز في الشاعر الحديث الذي تأثّر كثيرا بالتصوف ، نتيجة أسباب كثيرة لا يسع المقام لذكرها هنا . أمثال صلاح عبد الصبور ، عبد الوهاب البياتي ، محمد الفيتوري (من مواليد 1930) وغيرهم ... من ذلك اعتمد الشاعر الجزائري المعاصر ياسين بن عبيد (من مواليد 1958) على الكثير من هذه الثنائيات ، حيث نجدها مبثوثة في ثنايا دواوينه .

يقول في إحدى قصائده :

تغتـالني بتثنّيهـا إذا ابتعدت   تغتـالني بالتثـني حيـن تقتـرب 36

فالاغتيال موجود في البعد وفي القرب ، ولعلـه يقـصد يغتالـه الـشوق واللهفـة في البعد ... و يغتاله النور في القرب .

ولم يجمع بين هذه الثنائيات الضدية في بنيـة عامـة سطحيـة ، بـل غـاص فيها ووحّد بين ما يظهر متناقضا ، ومزج بينهما مزج الاتفاق والتلاؤم والانـسجام .وهنـا تظهر الجمالية " والتي تنجم عن الجمع بين الـضدين فـي بنيـة واحـدة ، وهـذا مـا يـؤدي إلـى تعميـق البنيـة الفكريـة للـنص بالحركـة الجدليـة بـين الثنائيـات الضدية " 37 .

و يقول أيضا :

حبان لم أقترف في العشق غيرهمـا   في بعد قربهما أخبو وأشتعـل 38

فإذا كان البعد نقيض القرب ، وهما متنافيان ولا يلتقيان في العرف البشري ، فإن الأمـر معكـوس عنـد الـصوفية ، وعنـد الـشاعر الحـديث .يقـول عبـد الجليـل مرتـاض:" فالمـصطلحات الـصوفية قـد تفـضي أحيانـا إلـى خلـط فـي المفـاهيم وتعمية في التأويل والتمثيل " 39. ولعلّ هذا مـا يـؤدّي إلـى تفعيـل الـنص وتجميلـه وتأثيره في القارئ .

دور الثنائيات الضدّية في التأثير و الإقناع :

للثنائيات الضدية دور كبير في التعبير وفي الإقناع ؛ فمـن وسـائل الإقنـاع الحجـة العقليـة القائمـة علـى الاسـتدلال والمقارنـة بـين المتناقـضين لتبيـين المفارقـة الـشاسعة بينهمـا ، فتعمـل الـنفس علـى الاتـصاف بالإيجـابي الحـسن والنفـور مـن الـسلبي القبـيح ، أو علـى الأقـل تُظهـر هـذه المقارنـة ميـزةَ الـشيئين . فالجدل والحجاج والبرهان كلّها تحتاج إلـى التـضاد ، وإلـى الـربط والمقارنـة بـين المتناقضين . فالربط بين الأشياء المتنـافرة يثيـر العواطـف الأخلاقيـة والمعـاني الفكرية40 في المتلقي ، لأن هـذا الأخيـر يلمس هـذه المفارقـة وهـذا التنـافر ويعيشهما . هذه الإثارة تؤدي إلى التأثير والإقناع وتحقيـق الغايـة المرجـوّة . ومـن ثم فالتضاد " يستغل أكثر ما يـستغل فـي الـسياقات الهادفـة إلـى تعريـة الحقـائق وكشفها ، والإبانة عن حسنات ومساوئ ، وذلـك لبعد الهوة بـين النقيـضين" 41 . و الشيء يُعرف بضدّه . قال ابن قتيبة (ت 276هـ) : " لو كـان كـلّ فـنّ مـن العلـوم شيئا واحـدا لـم يكـن عـالم و لا متعلّم ولا خفـيّ ولا جلـيّ ؛ لأن فـضائل الأشـياء تُعـرف بأضـدادها . فـالخير يُعـرف بالـشرّ، والنفـع بالـضرّ، والحلـو بـالمر، والـصغير بالكبير ، والباطن بالظاهر" 42 ، والعكس صحيح .

و الثنائيات الضدية من آليات الحجاج التي وظّفها الفصحاء فـي أحـاديثهم . فممّـا يروى في كتب الأمثال أنه قيل للفضيل بن عياض : ما أزهدك ؟ قال : أنتم أزهـد

منّي ، قيل : كيف ؟ قال : لأني أزهد في الدنيا وهي فانية ، وأنتم تزهدون في الآخرة وهي باقية 43. فقد استعمل الثنائية الضدية للتدليل على رأيه ولتدعيم فكرته القائلة (أنتم أزهد منّي) . وهو ما يعكس البعد الحجاجي لهذه الثنائيات ، والدور الذي تقوم به في الكلام لغرض الإقناع . فمن خلالهما يقوم المتكلم بالمقارنة بين المتناقضين ، ويكشف أفضلَهما ، مقنعا بذلك القارئ ، مقدّما له الدليلَ جاهزا ، والحجة جليّة ، والبرهانَ واضحا .

إضافة إلى ذلك ، فالتضاد يساعد على التذكّر واستحضار المعاني الغائبة عن الذهن ، فالضدّ يذكّرنا بضدّه ويُحضره إلينا دون عناء . ومن ثم فالثنائيات الضدية نمط تعبيري محفّز للتذكر،ويقوم بتلبية حاجة الذاكرة إلى الحفظ 44 .

ولعل هذا ما كلّه يفسّر كثرتها في القرآن الكريم ؛ حيث أنه كثيرا ما يعتمد على هذه الثنائيات الضدية بين المفردات أو التراكيب ، أو بين المواقف أو النماذج الإنسانية،فيرسم هذه المشاهد المتضادة في القصص وفي الأمثال،حين يربط بين المؤمنين والكافرين في سياق واحد أو بين مشاهد النعيم ومشاهد الجحيم وغيرها ، أو يعقب الترغيبَ بالترهيب ، ومشاهدَ النعيم بالجحيم ، وصفاتِ المؤمنين بالكافرين ... أو العكس ، لأن علاقة الضدية هذه هي الجهة الجامعة بين المتضادين . من ذلك يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾45 . ويقول أيضا : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾46 . وغير هذا كثير ، بل هناك سور مبنيّة على هذه الثنائيات الضدية . من ذلك مثلا أنّ سورة (الليل) مبنيّة على : اللَّيْلِ وَالنَّهَار / الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى / مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ وَ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ / اِلْيُسْرَى و اِلْعُسْرَى / الآخرة والأولى / الأشقى و الأتقى ...

ومنه أيضا قوله تعالى في آخر سورة (الزمر) في حديثه عن الكافرين والمتّقين :
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾47 .

جماليات الثنائيات الضدّية ودورها في تفعيل النص الأدبي:

النص الأدبي بنية لغوية معقّدة تتشابك فيه العلاقات شكلا ومضمونا وتتضافر لتقدّم نصّا عميقا ، تتنوّع فيه القراءات ، و تكثر التأويلات . ذلك لأن الإبداع يتنافى مع البساطة والسطحية ، ويتماشى مع العمق والثراء فيكون بالتالي فعّالا في القارئ محرّكا له ... ومن آليات هذا البناء الثنائيات القائمة على التضاد .

والتضاد عنصر هامّ وأساس في تحقيق فاعليّة و شعرية النص الأدبي ؛ فهو مخالفة،" والمخالفة تغدو فاعلية أساسية يتلقاها القارئ عبر كسر السياق والخروج عليه"48. وفي كسر السياق والخروج عليه دعوة إلى التأمل . يقول الزركشي " اعلم أن في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل"49. فالعلاقة بين المتناقضين علاقة مقلقة وليست مريحة ، وهو أمر يؤثر في القارئ أو السامع فينفعل به ، ويشحذ ذهنه ليتفهّم دلالته المتداخلة50 . فالتضاد لم يعد مجرّد تباين بين الشيء وضده ، بل صار في صميمه أسلوبا يعبر عن حالات نفسية وموضوعية متقابلة في تداعياتها الضدية مما يوضّح بعضه بعضا 51.

وهو ما تفطّنت إليه الدراسات الحديثة ـ كما سبق ـ يقول أحد المحدثين :" فقد أصبح مكوّنا أساسيا لإنتاج بنية النص ودلالته، فالتضاد تركيب بنائي ينهض على طرفين ،متنافرين على مستوى السطح ، متضافرين على مستوى العمق لإنتاج دلالة شعرية ذات كثافة ،وقوة تصل بالنص الشعري إلى قمة سحره وتمايزه عن طريق حركة التفاعلات بين طرفي التضاد من جهة وباقي عناصر النص من جهة أخرى "52 .

و الضد مقارنةٌ ومفارقةٌ بين طرفين ، وربطٌ وتفاعلٌ بينهما ، " لأن كلا الطرفين في المفارقة يلقي بظلاله على الآخر فيبرز ملامحه ويزيدها وضوحا وجلاء "53 . وفي هذا الربط ، و هذا التفاعل تتشكّل الصورة و يظهر الجمال وتنتج الدلالة و يتعمّق المعنى ، ويزداد ثراء ودهشة ، ويلقي بأثره النفسي على المتلقي؛ حيث يحمل معه صراعات نفسية ووجدانية تثير وعيه وتحرّك إدراكه، لأن هذه المزاوجات لا يبدو فيها ترابط أو تآلف، ما يحدث استنفارا في وعيه وفي إدراكه ، واستفزازا في شعوره من خلال تسليط الضوء على المفارقة والتنافر بين الأشياء 54. لذلك " فلا يمكن قراءة الشعرية العربية خارج مقوّماتها الجمالية ، ومن أهمها جماليات البديع" 55، والذي تدخل تحته الثنائيات الضدّية .

وهنا تظهر أهمية الضد ودوره في التعبير ، حتى أن منهم من يعتبره " أكثر خطورة على البال من الشبيه وأوضح في الدلالة على المعنى منه"56. ولعل

ذلك راجع إلى أن الشبيه لا يُظهر شَبيهَه ولا يميّزه ، بقدر ما يُظهره الضدُّ ويميّزه ، وقديما قيل " بضدّها تتميّز الأشياء ". وعلى هذا كلما ظهرت هذه الثنائيات الضدية في الكلام بدعوى من المعنى لا تطفّلا عليه ، كانت أنجح في أداء دورها المنوط بها في تحسين المعنى57 ، وتقريبه من الأذهان و الأفهام وإثارة المتلقي ، واستفزازه . فالتضاد " يخلق الجمال ويفجّر المعاني ويفصح عنها فتنقاد للفهم وتستقر بالذهن" 58. لأنّ بين المتضادين - وإن ظهرا متناقضين متباعدين - نوعا من المناسبة والانسجام تسوّغ الجمع بينهما وتخلق تأثيرا إيجابيا في القارئ .

ومن جهة أخرى ، فالضد من مظاهر التناسب بين المعاني ، حيث أنه يجمع بينها ، وإن كانت متخالفة و متضادة ، لأن بين المعنى وضده علاقة ، والمعنى يستدعي ضده ، والضدّ يظهر حسنه الضدّ - كما يُقال - . وعلاقة الضدية لا تعني الانفصال والتباعد . فالضدّ لا يمنع الصلة والرابط بين المعنيين، بل يزيد في جمال الكلام والتنبيه إليه ، وفي تماسكه وتآلفه . ومن ثم فالضد يُشكّل تناسبا ، والتناسب مظهر من مظاهر التماسك النصي ،" فكل نسق يقف مقابل نسق آخر تضادا و تشاكلا لينتهي إلى التآلف والتكامل والتناغم في وحدة منسجمة " 59. ولعلّ في هذا الجمع والتكامل والانسجام تظهر القيمة الجمالية ، فضلا عن تجلية المعنى . لأن الضدية لا تكون إلا بانعقاد الصلة التركيبية بين طرفي التضاد . ومن ثم تظهر قيمة ثالثة متَوَلِّدَة من اجتماع هذين الطرفين المتقابلين ، فتثير وتُحرّك مشاعر المتلقي ، ومن ثم يتضاعف التمتّع بالقيمة الجمالية 60 ." فدخول اللفظة في علاقات مع ألفاظ أخرى يكسبها وظيفة لم تكن لها قبل ذلك . وعلى ذلك فقد تنبثق من العلاقات الجديدة وظائف دلالية أخرى أو إيقاعات موسيقية "61. و الإيقاع - إضافة إلى وظيفته الجمالية - " قد يحمل من الشحن المعنوية باعتباره دالا ما لا يحمله المدلول نفسه "62.

لذلك لا تظهر هذه القيم إذا نظرنا إلى هذه الثنائيات باعتبارهما منفردين خارج النص ، كما نظر الكثير من القدماء إلى الطباق والمقابلة . فالتضاد جزء من البينة العامة للنص . ولعلّ هذا ما جعل أحمد مطلوب يقول عن الطباق باعتباره يشكّل ثنائيّة ضدّية : "المطابقة من مقوّمات التعبير ؛ لأنها تعتمد على الأضداد والمتناقضات ، ولذلك فهي ليست محسنا ، وإنما هي وسيلة من وسائل التعبير "63 .

الخاتمة :

الثنائيات الضديّة فكرة فلسفية الأصل نقلها النقد الأدبي الغربي ، رغم أنها موجودة في تراثنا العربي فكرة وإنتاجا . واهتمّ بها الباحثون منذ القديم بناء على أنّ اللغة انعكاس للواقع وتعبير عن الحياة . فالثنائيات الضدية تعكس مظاهر الكون و تعبّر عن الحياة الاجتماعية والطبيعة الإنسانية. وللثنائيات الضدّية دور كبير في التعبير ، وفي تحقيق شعرية النص الأدبي وجمالياته وتفعيله ؛ فهي تربط بين المتناقضين ، و في الوقت نفسه تُظهر المفارقة الشاسعة بينهما ، وتَكشف حقائق الأشياء ، وتنبّه إليها ... و تُقنِع العقل ، و تُسهم في إنتاج الدلالة وتوضيحها وتقريبها إلى الأذهان ، وتساعد على الحفظ والتذكّر ، وتُظهر الجمال و تُثير النفس وتحرّكها وتؤثّر فيها ، وتحقّق التماسك والانسجام بين أجزاء النص ... وهي بهذا تجمع بين الإمتاع والإقناع .

هوامش :

---

[1] ـ محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، دراسة بلاغية نقدية ، دار نشر المعرفة ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 2003 ، ص 234 .

[2] ـ جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د ت ، ج1 ، ص 379 .

[3] ـ أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، سيدنا الحسين ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 164.

[4] ـ ينظر : علي بن محمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، د ط ، 1985 ص 142.

[5] ـ سمير الديوب ، مصطلح الثنائيات الضدّية ، مجلّة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ، العدد : 1 المجلد : 41 يوليو / سبتمبر 2012 ، ص 99 .

[6] ـ ينظر : شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، دار المحجة البيضاء ، بيروت ط1 ، 2003 ، ص 231 .

[7] ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1424هـ 1 / 134.

[8] ـ ينظر : سمير الديوب ، مصطلح الثنائيات الضدّية ، ص 99 .

[9] ـ المرجــــع نفســــــه ، ص 116 .

[10] ـ الخطيب القزويني ، الإيضاح في علو البلاغة ، تحيق وتعليق عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط2 ، 2004 ، ص 288 .

[11] ـ الكهف : 18 .

[12] ـ عبد القادر حسين ، فن البديع ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 1 ، 1983 ، ص 49 .

[13] ـ التوبة : 82 .

[14] ـ قدامة بن جعفر ، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية ، ط1، 1302ه ، ص 51 .

[15] ـ عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل،دار صفاء،عمان،الأردن، ط1 ،2005 ، ص 31 .

[16] ـ المرجــــع نفســــــه ، ص 28 وما بعدها .

[17] ـ ينظر : حنا الفاخوري وجماعة من الأساتذة ، منتخبات الأدب العربي ، منشورات المكتبة البولسيّة ، بيروت ، ط 5 ، 1970 ، ص 204 .

[18] ـ عثمان حشلاف ، التراث والتجديد في شعر السياب ، دراسة تحليلية جمالية في مواده صوره موسيقاه ولغته، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، (د ط) ، 1986، ص 114 .

[19] ـ ينظر : ديوان ابن زيدون،شرح كرم البستاني،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1984، ص 9.

[20] ـ الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص288 .

[21] ـ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، تحقيق محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1988 ، ص 111 .

[22] ـ ينظر : عاصم محمد أمين بني عامر ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 53 .

[23] ـ نفســــه ، ص 43 .

[24] - سمير الديوب ، مصطلح الثنائيات الضديّة ، ص 111 .
[25] -- ينظر : مصطفى السعدني ، البناء اللفظي في لزوميات المعري دراسة تحليلية بلاغية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 100 وما بعدها .
[26] - ينظر : رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ،، منشأة المعارف ، الإسكندرية مصر ، د ط ، د ت ، ص 304 .
[27] - ينظر : طه عبد الرحمن ،مراتب الحجاج وقياس التمثيل ،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة سيدي محمد بن عبد الله ،فاس ،المغرب ، العدد التاسع ، (1987) ، ص 18 .
[28] - ينظر : لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 41 .
[29] - ينظر : إبراهيم رماني ، مجلة اللغة والأدب ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر العدد 02، (دت) ، ص 78.
[30] - علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط5 2008 ، ص 130 .
[31] - ينظر : عثمان حشلاف ، التراث والتجديد في شعر السياب ، ص 114 .
[32] - نفســه ، ص 122.
[33] - ينظر : عاصم محمد أمين بني عامر ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، و منى الساحلي ، التضاد في النقد العربي ، و علي زايد عشري ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، و موسى ربابعة جماليات الأسلوب والتلقي ...
[34] - ينظر : آجقو سامية ، البنية السردية في رواية " مواكب الأحرار " لنجيب الكيلاني ، دراسة سيميائية ، رسالة ماجستير في النقد الأدبي (مخطوطة) ، قسم اللغة والأدب العربي ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، السنة الجامعية 2004/ 2005 ، ص 69 وما بعدها .
[35] - شفيع السيد ، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د ت) ، ص221 .
[36] - معلقات على أستار الروح ، منشورات دار الكتب ، الجزائر ، 2003 ، ص 32 .
[37] - سمير الديوب ، مصطلح الثنائيات الضديّة ، ص 119 .
[38] - ياسين بن عبيد ، غنائية آخر التيه ، منشورات أرتيستيك ، القبة ، الجزائر ، 2007 ، ص 33.
[39] - محمد مرتاض ، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون الجزائر ، 2009 ، ص 50 .
[40] - ينظر : محمد قطب ، من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 2006 ، ص 55 .
[41] - عاصم محمد أمين بني عامر ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 60 .
[42] - ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (دط) (دت) ، ص 87 .
[43] - أحمد بن محمد الميداني ، مجمع الأمثال ، قدّم له وعلّق عليه حسين زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1408، 2 / 548 .
[44] - ينظر : محمد كريم الكوّاز ، كلام الله ، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية ، دار الساقي ، بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص 42 .
[45] - الشمس : 9 ، 10 .
[46] - الانفطار : 13 ، 14 .
[47] - الزمر : من الآية 71 إلى 75 .
[48] - موسى ربابعة ، جماليات الأسلوب والتلقي ،دار جرير ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2008 ، ص 184 .
[49] - البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط1 ، 1425هـ ، 2004م ، 3 / 283 .
[50] - ينظر : محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 236 .
[51] - ينظر : حسين جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية وأسلوبية) ، منشورات دار النمير ، دمشق ،ط1 ، 2005 ، ص 163 .
[52] - عاصم محمد أمين بني عامر ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 50 .
[53] - حلمي خليل ، الكلمة دراسة لغوية معجمية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر (د ط) ، 2011 ، ص 136
[54] - ينظر : شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، ص 232 ، موسى ربابعة جماليات الأسلوب والتلقي ، ص 187 .
[55] - سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري من التحسين إلى التكوين ، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2013 ، ص 15 .
[56] - عبد العزيز عتيق،علم البديع ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ،ط1 ، 1427، 2006 ، ص 63 .
[57] - المرجع نفســه ، ص 63 .

[58] - محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 236 .

[59] - حسن جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 154 .

[60] - ينظر : محمد بركات حمدي أبو علي ، بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفة ، دار وائل للنشر ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2004 ، ص 95 .

[61] - طالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي ، البيان والبديع ، لطلبة قسم اللغة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص 139 .

[62] - عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، تونس ، منوبة - الجمهورية التونسية ، دار الفرابي ، بيروت ، ط2 2007 ، ص 50 .

[63] - أحمد مطلوب ، البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بغداد ، 1980 ، ص 28 .